الحياة الطيّبة
السنة 28
العدد 58 - 59
صيف - خريف 2024م
ملف العدد

نظريّة الوحي النفسيّ عند المستشرقين -دراسة نقديّة-

د. الشيخ لبنان حسين الزين[1]

مستخلص:

تتناول هذه الدراسة نظريّة الوحي النفسيّ التي طرحها المستشرقون؛ بهدف إنكار المصدر الإلهيّ للوحي النبويّ المحمّديّ؛ من خلال إيراد تفسيراتٍ نفسيّةٍ واجتماعيّةٍ وتاريخيّةٍ لبيئة الجاهليّة قبل البعثة النبويّة، ولبعض الحوادث التاريخيّة في حياة النبيّ ﷺ، وللانفعالات النفسيّة والعوارض الجسديّة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي.

وتمتدّ هذه النظريّة بجذورها إلى عصر نزول القرآن؛ حيث نفى كفّار قريش ومشركوها الوحي الإلهيّ عن النبيّ ﷺ، وزعموا أنّه مجرّد اختلاقٍ ووهمٍ من نسج خياله وشاعريّته، أو أنّه سحر، أو ضربٌ من الجنون!

ثمّ طُرِحَت هذه النظريّة لاحقًا بمقاربةٍ وصياغةٍ جديدة؛ بعنوان «الوحي النفسيّ» من المستشرقين والملحدين الذين أنكروا وجود عالم الغيب، وكذلك الاتّصال المدّعى من الأنبياء عليهم السلام بهذا العالم؛ فذهبوا إلى أنّ ما يراه مدّعو النبوّة من معانٍ وأفكار حاضرة في أذهانهم هي نتيجة نبوغهم

(1) أستاذ في جامعة المصطفى ﷺ العالميّة، من لبنان.

وتفكيرهم العميق بمشاكل الإنسان والمجتمع وحملهم هَمَّ نشر الفضيلة والعدالة بين الناس؛ فتنقدح نتيجة ذلك الحلول في أذهانهم، فيظنُّون أنّها تُلقَى عليهم من خارج أنفسهم عبر ما يسمّونه الوحي الإلهيّ السماويّ أو الغيبيّ!

وتأتي هذه الدراسة؛ لتبيّن هذه النظريّة وأبرز مدّعيها من المستشرقين، وكذلك أبرز مَن نَقَدَها ونَاقَشَها من المستشرقين المُنصفين، ومن ثمّ نَقْدها ومُنَاقشتها من خلال ما يبطلها وينافيها من: الدلائل التاريخيّة القطعيّة، والمحتوى الداخليّ للظاهرة القرآنيّة، وموقف النبيّ ﷺ من تلك الظاهرة.

كلمات مفتاحية:

الوحي، الوحي القرآنيّ، الوحي النبويّ المحمّديّ، الظاهرة القرآنيّة، المستشرقون، الوحي النفسيّ.

مقدّمة:

خلق الله -تعالى- الإنسان خِلْقة ركَّبه فيها من روح وبدن تركيبًا اتّحاديًّا؛ فجعل له وراء شَخصه المادّيّ الظاهر الـمُعبَّر عنه بالبدن، حقيقةً معنويّةً باطنة هي الروح؛ بها يستعدّ ويحصل له الارتباط بعالمٍ معنويٍّ أعلى مجرّد عن المادّة ولوازمها: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِن طِينٍ * ثُمّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مّكِينٍ * ثُمّ خَلَقْنَا النّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللُّه أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1]؛ فهذا الخلْق الآخر هو حقيقة الإنسان الروحيّة التي أفاضها الله -تعالى-: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[2]؛ تلك الحقيقة التي تنتمي إلى عالم الأمر: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا﴾[3]؛ وهو العالم الذي تنزّلت منه الروح ويتنزّل منه الوحي والتدبير الإلهيّين: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾[4]، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾[5].

وعليه، فلا مانع للإنسان مِن أن يتّصل في جانبه المعنويّ والروحيّ بعالم الأمر المجرّد الذي يتنزّل منه الوحي، طالما أنّ روحه تستعدّ وتحمل خصائص هذا العالم؛ فيكون اتّصالها اتّصالًا خفيًّا لا يحمل خصائص المادّة، ولا يخضع لقوانينها الطبيعيّة؛ وهو ما يشكّل ظاهرة الوحي.

وقد نزل الوحي على امتداد تاريخ البشريّة حتّى انقطاعه برحيل رسول اللهﷺ، على آحادٍ من البشر؛ وهم الأنبياءعليهم السلام؛ ممّن لديهم لياقة الاتّصال الغيبيّ وتلقّي الوحي الإلهيّ؛ فخصّهم بحمل الهداية الوحيانيّة وتبليغها: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ

(1) سورة المؤمنون، الآيات 12-14.
(2) سورة الحجر، الآية 29.
(3) سورة الإسراء، الآية 85.
(4) سورة القدر، الآية 4.
(5) سورة الشورى، الآية 52.

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ...﴾[1].

والإدراك المتحصَّل بالوحي إدراكٌ خاصٌّ يختلف عن سائر الإدراكات البشريّة المتحصَّلة عن طريق الحسّ أو العقل أو الوجدان والمشتركة بين أفراد البشر كافّة، يُوجِده الله -تعالى- في أنبيائه عليهم السلام إيجادًا لا يعتريه معه لَبس أو شكّ أو خطأ، ولا يحتاجون فيه إلى إعمال نظر، أو توسّل دليل، أو إقامة برهان، أو نَصب حجّة؛ كما هو شأن الإدراكات البشريّة الحسّيّة والعقليّة. قال -تعالى-: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ...﴾[2]؛ فالنبيّ عليه السلام يتلقّى الوحي الإلهيّ بنفسه الشريفة من غير توسّط الحواسّ الظاهرة؛ فيسمع ويرى من غير وساطة السمع والبصر المادّيّين؛ وإلّا لكان من الممكن أن يسمع ويرى غيره من الناس؛ ما سمعه ورآه بالوحي، وَلَما كان الوحي حينها خاصًّا بالنبيّ عليه السلام!

ويوجد أمر لا نستطيع إدراكه في ظاهرة الوحي، وإنْ كنّا نعتبره واقعًا حقًّا، ونؤمن به إيمانًا صادقًا، وهو: كيف يقع هذا الاتّصال الروحيّ الغيبيّ؟ والسبب في ذلك: أنّ الوحي ليس من سنخ عالم المادّة والمادّيّات؛ لكي نستطيع إدراك كنهه أو تحديد كيفيّة حصوله، وما نستطيعه هو التعبير عنه على نحو التشبيه والاستعارة، أو المجاز والكناية لا أكثر، فهو ممّا يُدرَك ولا يُوصَف. فالوحي ظاهرةٌ روحيَّةٌ يدركها مَن يَصلُح لها، وليس بمقدور غيره أن يصِفها وصفًا بالكُنه، ما عدا التعبير عنها بالآثار والعوارض فقط[3].

وكذلك التعبير بنزول الوحي هو تعبيرٌ مجازيٌّ تشريفيٌّ، وهو ليس سوى إضافة إشراقيّة وإفاضة قدسيّة ملَكوتيّة يجدها النبيّ عليه السلام حاضرةَ نفسه،

(1) سورة النساء، الآية 163.
(2) سورة الشعراء، الآيتان 193-194.
(3) انظر: معرفة، محمّد هادي: التمهيد في علوم القرآن، ط3، قم المقدّسة، مؤسّسة التمهيد؛ مطبعة ستاره، 1432هـ.ق/ 2011م، ج1، ص90-91.

مُلقاة عليه من خارج روحه[1]؛ بفعل انفتاحه على عالم الأمر الذي فيه حقائق الأشياء، ومنه يتنزَّل الوحي والتدبير، فينكشف له بعض الغيب؛ ممّا يتوقّف عليه هداية الإنسان: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾[2].

والوحي من مختصّات النبوّة والرسالة يتلقّى عبره النبيّ عليه السلام والرسول عليه السلام الهداية الإلهيّة؛ لأجل إيصالها إلى الناس، وقد انقطع الوحي بعد رحيل خاتم النبيّين محمَّد صلى الله عليه وآله؛ حيث اكتملت الهداية الإلهيّة بالرسالة الخاتمة: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ...﴾[3]، فأُمِرَ الناس باتّباع رسالة الإسلام وترك باقي الرسالات السابقة: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[4]، والسير على هَديْها مستضيئين بهَدي الإمامة الحاملة لحقائق هذه الرسالة، والمبيِّنة لها، والضامنة لتطبيقها الصحيح: ﴿...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾[5]، والمربّية للإنسان على تعاليمها والآخذة بيده في التحقّق بها: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[6].

وقد ظهرت شبهات عدّة على الوحي النبويّ، منذ زمن الأنبياء عليهم السلام أثارتها أقوامهم، وتتابع طرح بعضها لاحقًا واستجدّت شبهات أخرى، ومن الشبهات المثارة على الوحي: نظريّة الوحي النفسيّ؛ التي حاول

(1) انظر: الطباطبائيّ، محمَّد حسين: القرآن في الإسلام، تعريب: أحمد وهبي، ط1، بيروت، دار الولاء، 1422هـ.ق/ 2001م، ص112-113.
(2) سورة الشورى، الآيتان 52-53.
(3) سورة الأحزاب، الآية 40.
(4) سورة آل عمران، الآية 85.
(5) سورة المائدة، الآية 3.
(6) سورة الأنبياء، الآية 73.

المستشرقون من خلالها تفسير الحالات النفسيّة والعوارض الجسديّة التي كانت تصيب النبيﷺ أثناء الوحي، أو الخلفيّات والبواعث الفكريّة والنفسيّة والاجتماعيَّة التي دفعته لادّعاء الاتّصال الوحيانيّ؛ بهدف إنكار المصدر الإلهيّ للوحي وادّعاء بشريّته؛ وهو ما ستتناوله هذه المقالة؛ بالبحث والتحليل والنقد.

أوّلًا: الوحي النفسيّ في كلام المستشرقين:

ادّعى بعض المستشرقين أنّ القرآن هو فيضٌ من خاطر النبيّﷺ وتأمّلاته الذاتيّة في نفسه وواقع مجتمعه، وانعكاس لحالته الباطنيّة وخواطره الفكريّة، وسبحاته الروحيّة.

وبالنظر إلى ما جاء به النبيّﷺ من معارف وتعاليم، وما كانت عليه بيئة الجاهليّة من واقع، وما كان يصيب النبيّﷺ من حالاتٍ وانفعالاتٍ نفسيّةٍ وعوارض جسديّة أثناء الوحي، نجدهم قد عبّروا عن نظرتهم إلى الوحي بتعبيراتٍ شتّى[1]؛ أبرزها أنّه:

- تجربة تأمّليّة
- تجربة إصلاحيّة اجتماعيّة
- خيال خلّاق وذكاء عقليّ
- حالة نفسيّة باطنيّة
- حالة انفعاليّة عاطفيّة
- حالة مرضيّة (هوَس/ صَرع/ ...)
- ...

(1) انظر: رضوان، عمر بن إبراهيم: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، لا ط، الرياض، دار طيبة، لا ت، ج1، ص381.

ويمكن الوقوف عند كلمات أبرز المستشرقين الذين تعرّضوا للوحي النفسيّ، ومنهم:

1. المستشرق الألمانيّ كارل بروكلمان (ت: 1956م):

يرى بروكلمان أنّ النبيّ ﷺ كانت تعتمل في نفسه مليًّا فكرة إصلاح مجتمعه، ونتيجة تفكيره القويّ والدائم بها، شعر وكأنّها وردت عليه من خارج نفسه؛ كالأنبياء السابقين عليهم السلام المرسَلين إلى أقوامهم، حيث يقول: «تحقّقت عنده أنّ عقيدة مواطنيه الوثنيّين فارغة، فكان يعتمل في أعماقه هذا السؤال: إلى متى يمدّهم الله في ضلالهم؛ ما دام هو قد تجلّى آخر الأمم للشعوب الأخرى بواسطة أنبيائه؟ وهكذا نضجت في نفسه الفكرة أنّه مدعوّ إلى أداء رسالة النبوّة»[1].

ويشير بروكلمان إلى أنَّ مصدر الوحي ناتج عن الأفكار التي كوَّنها النبيّ محمَّد ﷺ؛ زيادة على ما استفاده من اليهوديَّة والنصرانيَّة اللتين كانت لهما الأهمِّيَّة الكبرى في ولادة دينه الجديد[2].

2. المستشرق الإنكليزيّ وليام منتغمري وات (ت: 2006م):

أرجع منتغمري وات الوحي النبويّ المحمّديّ إلى خياله الخلّاق، حيث يقول: «من وجهة نظري هناك خيال خلّاق لدى محمّد (...) إنّ خياله الخلّاق فتح آفاقًا عميقة، وأنتج أفكارًا ارتبطت بالقضايا الرئيسيّة للوجود الإنسانيّ؛ بحيث أصبح دينه يتمتّع بجاذبيّة كبيرة ليس في زمانه فحسب، ولكنْ خلال القرون التي تليه»[3].

(1) بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلاميَّة، ترجمة: منير البعلبكي؛ نبيلة أمين فارس، لا ط، بيروت، دار العلم للملايين، 1968م، ص36.
(2) انظر: م.ن، ص69.
(3) منتغمري وات، وليام: محمَّد في المدينة، ترجمة: شعبان بركات، صيدا، المكتبة العصريّة، 1952م، ص210.

3. المستشرق الإسكتلنديّ توماس كارليل (ت: 1881م):

أحال كارليل الوحي النبويّ المحمّديّ إلى حالاتٍ من التأمّل والأفكار والخواطر النفسيّة التي كانت تعتمل في صدر النبيّﷺ أثناء خلواته، حيث يقول: «القرآن لو تبصرون، ما هو إلّا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير السنّ، بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال في الخلوات الصامتات، وكانت الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح البصر، وتتزاحم في صدره (...) وقد أتخيل روح محمّد الحادّة الناريّة، وهي تتململ طول الليل الساهر، يطفو بها الوَجد ويَرسب، وتدور بها دوّامات الفكر، حتى إذا أسفرت لها بارقة رأي حسبته نورًا هبط عليها من السماء، وكلّ عزم مقدَّس يهمّ به يخَاله جبريل ووحيه!»[1].

4. المستشرق الفرنسيّ جوستاف لوبون (ت: 1931م):

أرجع لوبون الانفعالات النفسيّة والعوارض الجسديّة التي كانت تصيب النبيّﷺ عند نزول الوحي عليه إلى حالةٍ من الصَرَع أو الهَوَس المرَضيَّين، حيث يقول: «ولا أهمّيّة لذلك، فلم يكنْ ذو المزاج البارد من المفكّرين هم الذين يُنشِئون الديانات، ويقودون الناس، وإنّما أُولو الهَوَس هم الذين مثّلوا هذا الدور، وهم الذين أقاموا الأديان، وهدموا الدول، وأثار الجموع، وقادوا البشر، ولو كان العقل لا الهَوَس هو الذي يسود العالم؛ لكان للتاريخ مجرى آخر!»[2].

5. المستشرق اليهوديّ المجريّ إيجناس جولد تسيهر (ت: 1921م):

أرجع جولد تسيهر الوحي النبويّ المحمّديّ إلى مجموعةٍ من العوامل الفكريّة والنفسيّة والاجتماعيّة والدينيّة المرتبطة بشخصيّات دينيّة

(1) كارليل، توماس: الأبطال، تعريب: محمَّد السباعي، ط3، مصر، المطبعة المصريَّة في الأزهر، 1930م، ص85-86.

(2) لوبون، جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، لا ط، لا م، دار الكتب المصريَّة، 2018م، ص141.

سابقة واطّلاعه على أفكارها ومعتقداتها؛ بما دفعه إلى ادّعاء تلقّي الوحي من خارجه، حيث يقول: «خلال النصف الأوّل من حياته اضطرته مشاغله إلى الاتّصال بأوساط استقى منها أفكارًا، أخذ يجترّها في قرارة نفسه، وهو منطوٍ في تأمّلاته أثناء عزلته، ولميل إدراكه وشعوره للتأمّلات المجرّدة التي يُلمح فيها أثر حالته المرضيّة، نراه ينساق ضدّ العقليّة الدينيّة والأخلاقيّة لقومه الأقربين والأبعدين»[1].

6. المستشرق الألمانيّ ثيودور نولدكه (ت: 1930م):

يرى نولدكه أنّ الوحي النبويّ المحمّديّ يرجع إلى عوامل عدّة؛ من نبوغٍ وذكاءٍ خاصّ، ومخيّلةٍ خلّاقة، وشعورٍ داخليٍّ بضرورة الإصلاح الاجتماعيّ، وشعورٍ داخليٍّ بالحاجة إلى السموّ... بحيث اعتملت في نفسه جميعها، فأحدثت فيه فكرة تلقّي الوحي من خارجه، حيث يقول: «غير أنّ روح محمّد كان يشوبه نقصان كبير يؤثّران على سمّوه، فإذا كانت النبوّة بالإجمال تصدر من المخيّلة المنفعلة وموحيات الشعور المباشرة، أكثر ممّا تصدر من العقل النظريّ، فإنّ محمّدًا كان يفتقر إلى هذا بشكل خاصّ. ففيما كان يتمتّع بذكاء عمليّ كبير، لم يكنْ له من دونه أن ينتصر على كلّ أعدائه، أعوزته القدرة على التجريد المنطقيّ إعوازًا شبه تامّ. لهذا السبب اعتبر ما حرّك نفسه أمرًا موحى به، منزّلًا من السماء، ولم يختبر اعتقاده مطلقًا، بل اتّبع الغريزة التي كانت تدفع به تارة إلى هنا، وطورًا إلى هناك؛ ذلك أنّه اعتبر هذه الغريزة صوت الله الذي أتاه. وهذا ما ينتج الفهم الحرفيّ الظاهر للوحي الذي يقوم عليه الإسلام»[2].

(1) جولد تسيهر، إيجناس: العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: محمَّد يوسف موسى؛ وآخرون، لا ط، القاهرة، المركز القوميّ للترجمة، 2013م، ص13.

(2) نولدكه، ثيودور: تاريخ القرآن، ترجمة: جورج تامر، ط1، لا م، مؤسّسة كونراد، 2004م، ص5-6.

ويُرجِع نولدكه المصدر الأساس للوحي النبويّ المحمّديّ إلى التوراة؛ ولا سيّما في ما يرتبط بقصص الأنبياء عليهم السلام، وبعض التعاليم والفروض[1].

7. المستشرق الفرنسيّ إميل برمنغم (ت: 1973م):

أنكر برمنغم الوحي النبويّ المحمّديّ، وساق مقدّمات عشرة تاريخيّة[2] استنتج منها نظريّة الوحي النفسيّ، حيث يقول: «فلمّا كانت سنة 610 أو نحوها، كانت الحالة النفسيّة التي يعانيها محمّد على أشدّها، فقد أبهظت عاتقه العقيدة؛ بأنّ أمرًا جوهريًّا ينقصه وينقص قومه، وأنّ الناس نسوا هذا الأمر الجوهري (...) ولقد عرف أنّ المسيحيّين في الشام ومكّة لهم دين أوحي به! وأنّ أقوامًا نزلت عليهم كلمة الله، وأنّهم عرفوا الحقّ ووعوه أنْ جاءهم علم من أنبياء أوحي إليهم به. كلّما ضلّ الناس بعثت السماء إليهم نبيًّا يهديهم إلى الصراط المستقيم ويذكّرهم بالحقيقة الخالدة (...) وتزايدت رغبة محمّد عن الاجتماع بالناس، ووجد في وحدة غار حراء مسرّة تزداد كلّ يوم عمقًا (...) وجعل يقضي الساعات الطوال جاثيًا في الغار، أو مستلقيًا في الشمس، أو سائرًا بخطوات واسعة في طرق الصحراء الحجريّة؛ وكأنّه يسمع الأصوات تخرج من خلال أحجارها تناديه مؤمنة برسالته! وقضى ستّة أشهر في هذه الحال حتى خشي على نفسه عاقبة أمره، فأسرّ بمخاوفه إلى خديجة، فطمأنته وجعلت تحدّثه بأنّه الأمين، وأنّ الجنّ لا يمكن أن تقترب منه، وفيما هو نائم بالغار جاءه ملك، فقال له: إقرأ. قال ما أنا بقارىء. وكان هذا أوّل الوحي وأوّل النبوّة»[3].

(1) انظر: العقيقي، نجيب: المستشرقون، لا ط، القاهرة، دار المعارف، 1980م، ص738-739.
(2) انظر: رضا، محمَّد رشيد: الوحي المحمَّديّ، ط2، بيروت، دار الكتب العلميَّة، 1426هـ.ق/2005م، ص65-72.
(3) رضا، الوحي المحمّدي، م.س، ص74-75.

ثانيًا: تقرير شبهة الوحي النفسيّ:

تُرجِع شبهةُ الوحي النفسيّ الوحيَ النبويّ المحمّديّ إلى فيض وجدان النبيّ الباطنيّ؛ بفعل تفكيره مليًّا بخلاص قومه من الشرك والظلم. ويمكن ملاحظة بعض النقاط الرئيسة فيها؛ وهي:

- إدراك النبيّ ﷺ بطلان ما عليه قومه
- ابتعاد النبيّ ﷺ عن ممارسة الظلم وارتكاب الفواحش
- تفكير النبيّ ﷺ بإصلاح مجتمعه
- تأثّر النبيّ ﷺ بتعاليم أهل الكتاب واستقاؤه معلومات وحيه من مصادرهم
- اعتقاد النبيّ ﷺ نفسه مبشَّرًا به من الأنبياء السابقين عليهم السلام.
- إيحاء نفسه له ذلك[1].

ويمكن تقرير هذه الشبهة بالآتي: إنَّ محمّدًا ﷺ قد أدرك بقوّة عقله الذاتيّة، انطلاقًا من فطرته السليمة وممّا يتمتّع به من نقاءٍ وصفاءٍ روحيّ ونفسيّ، بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام والأوثان، مضافًا إلى بعض الظروف الموضوعيّة التي حالت دون أن يمارس أساليب الظلم الاجتماعيّ وأن يتلوّث بألواث الجاهليّة، ثمّ طال تفكيره مليًّا في واقع مجتمعه؛ من أجل إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح، وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات والموبقات.

وقد استفاد من اليهود والنصارى في المعلومات والتعاليم التي دعا إليها، وإنْ كان لم يقبل جميع ما وصل إليه منها؛ كألوهيّة المسيح عليه السلام وأُمّه، وغير ذلك.

(1) انظر: الحكيم، محمّد باقر: علوم القرآن، ط3، قم المقدّسة، مجمع الفكر الإسلاميّ؛ مؤسّسة الهادي، 1417هـ.ق، ص152-154.

وكان قد سمع أنّ الله -تعالى- سيبعث نبيًّا، فتولَّد في نفسه أملٌ ورجاء أنْ يكون هو النبيّ الموعود، وأنّه آن أوان بعثته، فأخذ يتوسّل إلى تحقيق هذا الأمل بالانقطاع لعبادة الله -تعالى- في خلوته في غار حراء.

وفي خلواته الطويلة قَوِيَ إيمانه وسما وجدانه، وبعد فترةٍ من التأمّل أصبح أهلًا لهداية الناس، ثمّ ما زال يفكّر ويتأمّل ويتقلّب بين الآلام والآمال، حتّى أيقن أنّه هو النبيّ المنتظَر الذي سيبعثه الله لهداية البشريّة، وتجلّى له هذا الاعتقاد في الرؤى المناميّة، ثمّ قَوِيَ حتّى صار يتمثّل له المَلَك يلقِّنه الوحي في اليقظة.

وأمّا المعلومات والتعاليم التي جاءته من هذا الوحي، فهي مستمدّة في الأصل من تلك المعلومات والتعاليم التي حصل عليها من اليهود والنصارى، وممّا هداه إليه عقله وتفكيره، في التمييز بين ما يصحّ منها وما لا يصحّ، ولكنّها كانت تتجلّى وكأنّها وحيٌ نازلٌ عليه من عالم الغيب، وخطاب الخالق عزّ وجلّ، كما كان يأتي الأنبياء عليهم السلام؛ كموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ ما أثاره المستشرقون من نظريّة الوحي النفسيّ، ما هو إلّا صدى وترديد لما أثاره أهل الجاهليّة في زمن البعثة النبويّة الشريفة، مع اختلاف المستشرقين عنهم في تعليل الوحي النفسيّ؛ بإرجاعهم إيّاه إلى تفسيراتٍ نفسيَّةٍ واجتماعيَّةٍ وتاريخيَّة...

فقد أنكر أهل الجاهليّة نبوّة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله واتّصاله الوحيانيّ بعالم الغيب، وادّعوا أنّه أتى بالقرآن من عند نفسه، وحكى القرآن مقولتهم بقوله -تعالى-: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2]، وردّ عليهم بدعوتهم إلى الإتيان بحديث مثله إنْ كانوا صادقين في دعواهم: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ

(1) انظر: الحكيم، علوم القرآن، م.س، ص146.
(2) سورة الطور، الآية 33.

مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[1]، ودعاهم إلى مراجعة سيرة النبيّ ﷺ بينهم طيلة أربعين سنة، فلو كان القرآن كلامه؛ لكان صدر عنه ما يشابهه قبل نزول القرآن!: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

وقد أرجع أهل الجاهليّة نسبتهم الوحي القرآنيّ إلى النبيّ ﷺ لعللٍ عدّة؛ هي:

- **السحر:**

قالوا إنّ القرآن سِحْر، والنبيّ محمّد ﷺ ساحر: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[3]. وردّ عليهم القرآن ادّعاء السحر بأنّ الله -تعالى- لا يصلح عمل المفسدين: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[4]، ولا يُنجِح عمل السحرة: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[5]، وأنّ أدنى تأمّل في تعاليم الوحي القرآنيّ يرشدنا إلى أنّه ليس بسحر: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾[6].

- **أضغاث أحلام:**

قالوا إنّ كلام القرآن أضغاث أحلام ورؤى كان يراها النبيّ ﷺ فيلتبس عليه أمرها؛ فيظنّها وحيًا من الله: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾[7]. وردّ عليهم القرآن ذلك بأنّ

(1) سورة الطور، الآية 34؛ وانظر: سورة يونس، الآية 38.
(2) سورة يونس، الآية 16.
(3) سورة الأحقاف، الآية 7؛ وانظر: سورة المدثّر، الآيتان 24-25؛ سورة سبأ، الآية 43.
(4) سورة يونس، الآية 81.
(5) سورة طه، الآية 69.
(6) سورة القمر، الآيتان 4-5؛ وانظر: سورة الذاريات، الآيات 52-55.
(7) سورة الأنبياء، الآية 5.

النبيّ ﷺ لم يكنْ أوّل مُرسَلٍ من عنده تعالى، وقد خلت من قبله الرسل: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ...﴾[1].

- الشعر:

قالوا إنّ القرآن شعر والنبيّ محمّد ﷺ شاعر؛ كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾[2]. وردّ عليهم القرآن بنفي صفة الشعر وسجع الكهّان عن كلام القرآن: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾[3].

- الجنون:

فقالوا إنّ النبيّ ﷺ مجنون، وما يدّعيه من الوحي هو كلام مجنون: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[4]، وردّ عليهم القرآن ذلك؛ بقوله -تعالى-: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * ...﴾[5].

ثالثًا: رفض شبهة الوحي النفسيّ في كلام بعض المستشرقين:

رفض بعض المستشرقين نظريّة الوحي النفسيّ، مُثبتين للنبيّ ﷺ من الاتّصال الوحيانيّ الغيبيّ ما حصل للأنبياء السابقين عليهم السلام، ومن هؤلاء المستشرقين:

1. المستشرق البلجيكيّ هنري لامنس (ت: 1937م):

استبعد لامنس الوحي النفسيّ عن النبيّ محمّد ﷺ، مؤيّدًا اتّصاله الوحيانيّ بعالم الغيب، حيث يقول: «هكذا كان محمّد بحراء، فكان ينشد

(1) سورة الأحقاف، الآية 9؛ وانظر: سورة آل عمران، الآية 144؛ سورة الأنبياء، الآية 7.
(2) سورة الطور، الآية 30.
(3) سورة الحاقّة، الآيتان 41-42.
(4) سورة الحجر، الآية 6؛ وانظر: سورة القمر، الآية 2.
(5) سورة التكوير، الآيات 22-29.

الكون في تلك الجبال التي كان يذهب يخلو بنفسه فيها، متأمّلًا في السماء ذات الكواكب، إلى ما كان يسمعه من أعماق قلبه، وهو الرجل الأمّيّ الفطريّ الصادق، وذلك صوت الحقيقة الأبديّة (...) لم يكنْ محمّد ممّن لم يعرف العالم الباطن، لم يكنْ متصوّفًا بالمعنى المعروف، إلا أنّه كان يرى أنّ الأمور التي في الغيب أعظم من الأمور التي تحت الحسّ المشهود، أدنى درجة من المحجوب، فالنظام الروحيّ في نظره هو الأهمّ؛ وهو الوجود الحقيقيّ»[1].

2. المستشرق الفرنسيّ إدوارد مونتيه (ت: 1894م):

أقرّ مونتيه بصدق النبيّ محمّدﷺ في دعواه النبوّة والاتّصال بالغيب، وعدّه في سلسلة الأنبياء السابقين، حيث قال في مقدّمة ترجمته الفرنسيّة للقرآن: «كان محمّد نبيًّا صادقًا؛ كما كان أنبياء بني إسرائيل في القديم، كان مثلهم يؤتَى رؤيا ويُوحَى إليه، وكانت العقيدة الدينيّة وفكرة وجود الألوهيّة متمكّنتين به؛ كما كانتا متمكّنتين في أولئك الأنبياء أسلافه، فتحدث فيه كما كانت تحدث فيهم»[2].

3. المستشرقة الإيطالية لورا فكشيا فالييري (ت: 1897م):

صدّت فالييري للادّعاءات والافتراءات الاستشراقيّة الكاذبة على النبيّﷺ والتي شاعت في القرون الوسطى[3]، وصرّحت بإيمان جماعة من المستشرقين بصدق نبوّته ووحيه وخاتميّة رسالته، حيث قالت: «إنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ وصف محمّد بتلك الأكاذيب التي كانوا يشيعونها في القرون الوسطى عنه وعن ديانته، قد خفت كثيرًا في هذا العصر، وصاروا

(1) لامنس، هنري: عهد الإسلام، ص62، 80. نقلًا عن: الشيباني، محمَّد: الرسولﷺ في الدراسات الاستشراقيّة المنصفة (كتاب إلكترونيّ)، موقع المكتبة الشاملة الحديثة (al-maktaba.org)، ص30.

(2) نقلًا عن: رضا، الوحي المحمّدي، م.س، ص37.

(3) انظر: الشيباني، الرسولﷺ في الدراسات الاستشراقيّة المنصفة، م.س، ص161.

ينشدون الحقيقة التاريخيَّة عن محمّد، وعن الإسلام الذي قلب وجه العالم. وإنّ جماعة من المستشرقين يؤيّدون رسالة محمّد، ويقولون إنّه خاتم الرسل»[1].

4. المستشرق السويسري حنا دا قنبرت (ت: 1912م):

دافع قنبرت عن النبيّ ﷺ بعد دراسته للوثائق التاريخيّة في كتابه «محمّد والإسلام»؛ مستنبطًا منها عظمة النبيّ ﷺ وصدقه ونبوّته، حيث يقول: «بقدر ما نرى صفة محمَّد الحقيقيّة بعين البصيرة والتروّي في المصادر التاريخيَّة الصحيحة... وقد جاء بشرع لا يسعنا أن نتّهمه فيه»[2].

5. المستشرق السويسريّ جون وانتبورت (ت: 1863م):

استبعد وانتبورت نظريّة الوحي النفسيّ عن النبيّ محمّد ﷺ، بقوله: «بقدر ما نرى صفة محمّد الحقيقيّة بعين البصيرة والتروّي في المصادر التاريخيّة الصحيحة؛ بقدر ما نرى من ضعف البرهان وسقوط الأدلّة لتأييد أقوال الهجو الشديد والطعن القبيح الذي اندفن على رأسه وانهار عليه من أفواه المغرضين، والذين جهلوا حقيقة محمَّد ومكانته، ذلك الرجل العظيم عند كلّ من درس صفاته العظيمة، كيف لا، وقد جاء بشرعٍ لا يسعنا أن نتّهمه فيه»[3].

6. المستشرق الألمانيّ كارل هينرش بيكر (ت: 1937م):

دافع بيكر عن النبيّ ﷺ في وجه من اتّهمه بالسحر والدجل، معظّمًا له ومصدّقًا بما جاء به من رسالةٍ تنسجم مع تعاليم المسيحيّة، حيث قال: «لقد أخطأ من قال إنَّ نبيّ العرب دجّال أو ساحر؛ لأنّه لم يفهم

(1) فالييري، لورا فكشيا: الأديان، ص92؛ نقلًا عن: الشيباني، الرسول ﷺ في الدراسات الاستشراقيّة المنصفة، م.س، ص161.
(2) نقلًا عن: م.ن، ص.ن.
(3) نقلًا عن: م.ن، ص.ن.

مبدأه السامي. إنّ محمّدًاﷺ جدير بالتقدير، ومبدأه حريّ بالاتّباع، ليس لنا أن نحكم قبل أن نعلم. وإنّ محمدًا خير رجل جاء إلى العالم بدين الهدى والكمال، كما أنّنا لا نرى أنّ الديانة الإسلاميّة بعيدة عن الديانة المسيحيّة»[1].

7. المستشرق الروسيّ جان ميكائيليس (ت: 1791م):

دحض ميكائيليس المزاعم والافتراءات على النبيّﷺ بالسحر والشعوذة والسفه في كتابه «العرب في آسيا»، مؤكّدًا على سموّ أخلاقهﷺ وعلوّ شأنه وصدق رسالته وتعاليمه ورفعتها، حيث يقول: «لم يكنْ محمّد نبيّ العرب المشعوذ ولا الساحر، كما اتّهمه السّفهاء في عهده، وإنّما كان رجلًا ذا حنكة وإدارة وبطولة وقيادة وعقيدة، فلقد دعا لدينه بكلّ صفات الكمال، وأتى للعرب بما رفع من شأنهم، ولم نعرف عن دينه إلَّا ما يتلاءم مع العصور مهما تطوّرت، ومن يتّهم محمّدًا ودينه بخلاف هذا؛ فإنّه ضال عن الطريقة المثلى، وحريّ بكلّ الشعوب أن تأخذ بتعاليمه»[2].

8. المستشرق الأمريكيّ ويل ديورانت (ت: 1981م):

نفى ديورانت ما فسّره بعض المستشرقين لما كان يعتري النبيّﷺ أثناء الوحي من حالاتٍ انفعاليّة وجسديّة؛ بأنّه ليس إلَّا حالة مرضيّة ونوبات صَرَع أو هستيريا، حيث يقول: «ولكنّنا لا نسمع أنّه عضّ في خلالها لسانه، أو حدث ارتخاء في عضلاته؛ كما يحدث عادةً في نوبات الصرع. وليس في تاريخ محمّد ما يدلّ على انحطاط قوّة العقل التي يؤدّي إليها الصرع عادة، بل نراه على الكفّار يزداد ذهنه صفاءً، ويزداد قدرةً على التفكير، وثقةً بالنفس، وقوّةً في الجسم والروح والزعامة؛ كلّما تقدّمت به السنّ؛

(1) نقلًا عن: الشيباني، الرسولﷺ في الدراسات الاستشراقيّة المنصفة، م.س، ص164.
(2) نقلًا عن: م.ن، ص164.

حتّى بلغ الستّين من العمر. وقصارى القول: إنّا لا نجد دليلًا قاطعًا على أنّ ما كان يحدث للنبيّ كان من قبيل الصرع»[1].

9. المستشرق الفرنسيّ القس لوزون (ت: 1837م):

يرى لوزون في كتابه الشرق أنّ النبيّ ﷺ نبيٌّ مرسَلٌ من عند الله تعالى، وهو جليل القدر، وقد حمل إلى الناس دين الله وشريعة الإسلام الصالحة لكلّ زمانٍ ومكان، فيقول: «إنّ محمّدًا بلا التباسٍ ولا نكرانٍ كان من النبيّين والصدّقين، وهو رسول الله القادر على كلّ شيء، بل إنّه نبيٌّ جليل القدر، ومهما تحدّثنا عنه فليس بالكثير في حقّه؛ لأنّه جاء إلى العالم بدينٍ جمع فيه كلّ ما يصلح للحياة»[2].

10. المستشرق الألمانيّ دي تريسي فردرمك (ت: 1903م):

يرى فردرمك في أحد مؤلّفاته؛ وهو «مقولات أرسطاطاليس» صدق النبيّ ﷺ في اتّصاله الوحيانيّ بعالم الغيب، وعظمة ما جاء به من رسالة، حيث يقول: «إنّا لو أنصفنا الإسلام لاتّبعنا ما عنده من تعاليم وأحكام؛ لأنّ الكثير منها ليس في غيره، وقد زاد محمّد نموًّا وعظمة بحسن عنايته وعظيم إرادته، ويظهر من محمّد أنّ دعوته لهذا الدين لم تكن إلّا عن سببٍ سماويّ. إنّا نقول هذا لو أنصفناه فيما دعا إليه ونادى به. وإنّ من اتّهم محمّدًا بالكذب؛ فليتّهم نفسه بالوهن والبلادة وعدم الوقوف على ما صدع به من حقائق»[3].

11. المستشرق الفرنسيّ دي سلان ماك غوين (ت: 1879م):

يرى غوين، في مقدّمة ترجمته الفرنسيّة لمقدّمة ابن خلدون، أنّ النبيّ محمّدًا ﷺ متقدّمٌ على أقرانه من الأنبياء عليهم السلام، وشريعته متميّزة ومتقدّمة

(1) نقلًا عن: الشيباني، الرسول ﷺ في الدراسات الاستشراقيّة المنصفة، م.س، ص165.
(2) نقلًا عن: م.ن، ص167.
(3) نقلًا عن: م.ن، ص168.

على غيرها من الشرايع، حيث يقول: «إنّ العرب أمّة تمتاز بكثيرٍ من الصفات، ولها دينٌ جامعٌ وشامل، لا يعيبه إلَّا من يجهله، وصاحب دينهم محمّد الفقير. وقبل أن نعرف الدين يجب أن نعرف مَن أتى به. وحقًّا أقول: ليس كمحمّد في سلسلة الأنبياء، ولا كشريعته في سلسلة الشرائع. لا نبالغ إذا قلنا إنّ محمّدًا خير مَن أتى بشريعة. ولقد وقف في وجه الطغاة من قريش، حتى إذا ما أراد وبلغ منتهى الطريق الذي سلكه وعمل له، وإذا به وبشريعته يتمتّعان بذِكرٍ عاطرٍ وحديثٍ حسنٍ، وليس باستطاعتنا أن نثير عليهما غبار الانتقاص»[1].

كما أقرّ مستشرقون آخرون بصدق النبيّﷺ في نبوّته واتّصاله الوحيانيّ الغيبيّ وصحّة رسالته؛ كتوماس كارليل (ت: 1881م)، وألفونس دي لامارتين (ت: 1869م)، وهنري دي كاستري (ت: 1927م)، وألمستر سنكس (ت: 1883م)، وليو تولستوي (ت: 1910م)، وتوماس آرنولد (ت: 1930م)، ...[2].

رابعًا: مناقشة نظريّة الوحي النفسيّ ونقدها:

يمكن مناقشة هذه النظريّة ونقدها من خلال النقاط الآتية:

1. الدلائل التاريخيّة تناقض نظريّة الوحي النفسيّ:

ناقش الشيخ محمَّد رشيد رضا في كتابه «الوحي المحمّديّ» المقدّمات التاريخيّة التي ذكرها المستشرق الفرنسيّ إميل درمنغم (ت: 1871م)، ثمّ أبطل هذه المقدّمات كلّها؛ لأنّ أكثرها مبنيٌّ على آراء مُتَخَيَّلة، أو دعاوى باطلة، لا قضايا تاريخيّة ثابتة[3]. وقد لخّص السيّد محمَّد باقر الحكيم ﷺ هذه المقدّمات والردود عليها[4]. ويمكن إجمالها وإضافة الردود الأخرى؛

(1) نقلًا عن: الشيباني، الرسولﷺ في الدراسات الاستشراقيّة المنصفة، م.س، ص170.
(2) انظر: محمَّد، آراء المستشرقين حول الوحي، م.س، ص34-35.
(3) انظر: رضا، الوحي المحمَّديّ، م.س، ص127-165.
(4) انظر: الحكيم، علوم القرآن، م.س، ص154-165 (بتصرّف).

وفق الآتي:

أ. ما يذكرونه من تفاصيل ليس لها مصدر تاريخيّ معتمد! من قبيل: مسألة لقاء الراهب بحيرا مع النبيﷺ؛ وهو بصحبة عمّه أبي طالبعليه السلام الأمر الذي يدعوهم إلى استنتاج وافتراض محادثات دينيّة وفلسفيّة معقّدة جرت بينهما! فلو سلّمنا حصول ذلك اللقاء؛ فإنّه كان محدودًا وقصيرًا وعابرًا من جهة أولى، وكان بحضور زعماء قريش الذي لم يُنقَل عنهم خبرًا عن اللقاء، ولا احتجّوا به على بطلان نبوّة النبيّﷺ من جهة ثانية، وكان عمر النبيّﷺ آنذاك اثني عشر عامًا من جهة ثالثة؛ وبذلك يكون اللّقاء غير كافٍ للتعلّم والدرس والتحصيل، فضلًا عن أنّه لا تُوجد رواية تذكر ذلك[1]!.

وتعليل اطّلاعه على أخبار عاد وثمود، بأنّه كان نتيجة مروره بأرض الأحقاف، على الرغم من أنّ هذه الأرض لا تقع على الطريق الاعتياديّ لمرور القوافل التجاريّة، كما أنّ التأريخ لم يذكر لنا مرور النبيّﷺ بها، إلى غير ذلك من الأحداث والقضايا.

ب. افتراض تعلّم النبيّﷺ من نصارى الشام وغيرهم لا يتّفق مع واقع الحيرة والتردّد في موقف المشركين من دعوة رسول اللهﷺ ونسبته الرسالة إلى الوحي الإلهيّ؛ لأنّ مثل هذه العلاقة – لو كانت موجودة - لا يمكن التستّر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين وغيرهم، الذين عاصروه وعايشوه في مجتمع ضيِّق، وعرفوا أخباره وخبروا حياته العامّة؛ بما فيها من سفرات ورحلات.

ج. إنّه لم يعرف عن الرسولﷺ أنّه كان ينتظر أن يُفاجأ بالوحي، أو يأمل أن يكون هو الرسول المنتظَر، لينمو ويتطوّر هذا الأمل في نفسه، فيصبح واقعًا نفسيًّا، على الرغم من تدوين كتب السيرة النبويّة لأدقّ الأحداث والتفصيلات عن حياة الرسولﷺ الشخصيّة.

(1) انظر: محمَّد، آراء المستشرقين حول الوحي، م.س، ص50.

د. إنّ هذه النظريّة تفرض أن يكون إعلان النبوّة في اللحظة الأولى من الدعوى، وأن يطرح مفاهيمه وأفكاره ومناهجه عن الكون والحياة والمجتمع بجوانبه المتعدّدة ودفعة واحدة؛ لأنّ المفروض أنّ الصورة كانت متكاملة عنده؛ نتيجة التفكير الطويل ودراسة الكتب وأعمال الأنبياءعليهم السلام السابقين، مع أنّ التأريخ يؤكّد أنّ أسلوب الدعوة وطريقتها كانا يختلفان عن ذلك تمامًا.

هـ. «ولو فرض محالًا [تعلّم النبيّصلى الله عليه وآله من أهل الكتاب] فما هذه المعارف والعلوم؟ ومن أين هذه الحكم والحقائق؟ وممّن هذه البلاغة في البيان الذي خضعت له الرقاب وكلّت دونه الألسن الفصاح؟»[1].

و. لم يثبت تاريخيًّا تعلّم النبيصلى الله عليه وآله من ورقة بن نوفل؛ كما لم يثبت أنّ ورقة كان يدعو إلى النصرانيّة. وجميع الروايات الصحيحة أكّدت عدم اتّصال الرسولصلى الله عليه وآله بورقة إلا بعد نزول الوحي إليه بفترة. ولو سلّمنا بحصول هذا اللقاء فإنّ ورقة كان فيه في موقف المستفسِر لما حصل مع النبيّصلى الله عليه وآله في غار حراء، فلمّا سمع ما وقع لهصلى الله عليه وآله آمن به وشهد على صدقه، ووعده أنّه سينصره نصرًا مؤزّرًا، بعد أن أخبره أنّ قومه سيؤذونه ويخرجونه، ثمّ لم يلبث ورقة أن توفّي ولم يدخل الإسلام![2].

ز. لا شكّ أنّ هناك فروقًا واضحة بين الأنبياءعليهم السلام والمصلحين الاجتماعيّين؛ فالأنبياءعليهم السلام آحاد من البشر أوحى الله إليهم بتعاليمه وأمرهم بتبليغها، فجاؤوا بأفكار منسجمة مع العقل والفطرة، تخالف ما كان عليه أقوامهم، وأتوا بقيم أخلاقيّة واجتماعيّة غير متأثّرة بما كانت عليه أممهم؛ ما يدّل على ربّانيّة ما جاؤوا به من علمٍ أو كتاب. ولقد ظهر لكلّ

(1) الطباطبائيّ، محمَّد حسين: الميزان في تفسير القرآن، لا ط، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، لا ت، ج1، ص63.

(2) انظر: عتر، حسن: وحي الله (حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنَّة نقض مزاعم المستشرقين)، ط1، دمشق، دار المكتبي، 1419هـ.ق/ 1999م، ص91-94.

منصف أنّ ما دعا إليه النبيّ ﷺ من العقائد والشعائر العباديّة والقيم الأخلاقيَّة، والتكاليف الشرعيّة والحقوق وقواعد السلوك لم يكنْ نابعًا من بيئته، بل كان غريبًا عن ثقافتهم مباينًا لأعرافهم، كما قرّر جعفر بن أبي طالب عليه السلام ذلك أمام ملك الحبشة، فقال: «أيها الملك كنّا قومًا أهل جاهليّة، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف، فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. فصدّقناه، وآمنّا به، واتّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذّبونا وفتنونا عن ديننا»[1]. فوصف له الحالة التي كانوا يعيشونها، ثمّ بَيَّنَ صفات النبيّ الموحَى إليه، وما أمرهم به ممّا يخالف ما كانوا عليه، وما نهاهم عنه من الأوزار والآثام، ثمّ عدّد أمور الإسلام الأخرى؛ فدّل هذا على أنّ النبي ﷺ أُوحِي إليه من الله تعالى[2].

ح. قامت الأدلّة العقليّة والقرائن والشواهد التاريخيّة القطعيّة على إثبات صدق النبيّ ﷺ في دعواه الاتّصال بالغيب من خلال الوحي؛ كإتيانه بالمعاجز التي تحدّى بها الناس وعجزوا عن الإتيان بمثلها؛ وأبرزها القرآن الكريم[3]، وإخبار الأنبياء عليهم السلام والرسل عليهم السلام والرسالات السابقة وتبشيرها

(1) الطبري، محمَّد: دلائل الإمامة، تحقيق ونشر: مؤسّسة البعثة، ط1، قمّ المقدَّسة، 1413هـ.ق، ص12.
(2) انظر: محمَّد، آراء المستشرقين حول الوحي، م.س، ص65-67.
(3) انظر: سورة الإسراء، الآية 88؛ سورة يونس، الآية 38؛ سورة هود، الآية 13؛ سورة الطور، الآيتان 33-34؛ سورة البقرة، الآيتان 23-24.

به ﷺ[1]، وسيرته ﷺ التي اتّصفت بالصلاح والصدق والأمانة والحكمة... قبل دعواه الاتّصال بالغيب وبعدها، وصبره وتحمّله الأذى الذي لحقه من الدعوة[2]، وكذلك سيرة المتّبعين له التي اتّسمت بالصدق والصلاح والتضحية... قبل اتّباعهم له وبعده[3].

ط. لو كان الوحي نتيجة النبوغ والعبقريّة لظهرت أماراته على مدّعيه منذ صغره؛ وذلك قبل دعواه الوحي في مراحل متقدّمة من عمره؛ كما في النبيّ محمّد ﷺ (بُعِث في سنّ الأربعين)، وكذلك أغلب الأنبياء والرسل عليهم السلام، بُعِثوا في مراحل متقدّمة من عمرهم الشريف! على أنّ العبقريّة تختلف عن النبوّةِ في جملة من الأمور؛ منها: أنّ العبقريّة تحتاج إلى التعليم والتدريب والممارسة؛ بخلاف النبوّة التي يتلقّى فيها النبيّ عليه السلام الحقائق بالوحي الإلهيّ، وأنّ العباقرة لا يتحدّون الناس في ما يأتون؛ بخلاف الأنبياء عليهم السلام الذين يقدّمون المعاجز للناس ويتحدّونهم في الإتيان بمثلها؛ لإثبات صدقهم في دعوى الاتّصال بالغيب.

ي. ما ذكره المستشرقون من حالاتٍ انفعاليّة وعوارض جسديّة؛ تستدعي القول بالوحي النفسيّ، ينحصر بأوقاتٍ خاصّة؛ وهي في حالة الوحي المباشر، بينما نجده ﷺ كان ينزل عليه الوحي في حالاتٍ متنوّعة طيلة بعثته الشريفة؛ في حالات السرّاء والضراء، والشدّة والرخاء، والحرب والسلم... ولم تكنْ تعتريه تلك الأمور؛ بما يضعِّف من احتماليّة الوحي النفسيّ! وسبب هذه الحالات والعوارض التي تعتريه ﷺ في الوحي المباشر، يعود إلى طبيعة هذا النحو من أنحاء الوحي، ويمكن توجيهها بأنّها كانت بمثابة علاماتٍ حاكيةٍ عن ثقل هذا الوحي المباشر؛ بفعل اتّصال النبيّ ﷺ بكلّ كيانه ووجوده بمبدأ الوجود، وانفتاح نفسه

(1) انظر: سورة البقرة، الآية 129؛ سورة الصفّ، الآية 6.
(2) انظر: سورة القلم، الآية 4.
(3) انظر: سورة الفتح، الآية 29.

الطاهرةﷺ وهو في نشأة عالم المادّة المحدود على عالم الأمر الأعلى. فمن الطبيعي أن تظهر عليهﷺ هذه العوارض المادّية، حتى كأنّ روحه تفيض منه بفعل هذا الاتّصال المباشر؛ وهو ما عبّر عنه النبيﷺ في وصف الوحي المباشر عندما يحصل له، وتقريبه للناس بما يرونه من علاماتٍ تحصل حالة النزع عند الاحتضار؛ فعن عبد الله بن عمر: سألت النبيّﷺ: هل تحسّ بالوحي؟ قالﷺ: «أسمع صلاصل، ثمّ أسكت عند ذلك. فما من مرّة يُوحى إليّ إلّا ظننت أنّ نفسي تفيض»[1].

وفي تحقّق هذا الاتّصال مع وجود قيود عالم المادّة دلالة جليّة على عِظَم نفس الرسول الأكرمﷺ وطهارتها وكمالها، وليس كما أراد المستشرقون توظيف هذه الآثار والعلامات!!!

ك. إنّ النبيّﷺ لم يخترْه الله لنبوَّته إلاّ بعد أن أكمل عقله وأدَّبه، فأحسن تأديبه، وعرَّفه من أسرار ملكوت السماوات والأرض؛ ما يؤهّله للقيام بمهمَّة السفارة وتبليغ رسالة الله إلى العالمين؛ وهو ما أشارت إليه بعض الروايات الشريفة: فعن الإمام عليّ عليه السلام: «ولقد قرَنَ الله به من لدُن أن كان فطيمًا أعظم مَلك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم؛ ليله ونهاره...»[2]. وعن الإمام الهادي عليه السلام: «فلمّا استكمل أربعين سنة، نظر الله عزّ وجلّ إلى قلبه، فوجده أفضل القلوب، وأجلها، وأطوعها، وأخشعها، وأخضعها، فأذن لأبواب السماء ففتحت، ومحمَّدﷺ ينظر إليها، وأذن للملائكة فنزلوا ومحمَّدﷺ ينظر إليهم، وأمر بالرحمة، فأنزلت عليه من لدن ساق العرش إلى رأس محمَّد وغمرته، ونظر إلى جبرئيل الروح الأمين المطوّق بالنور، طاووس الملائكة هبط إليه، وأخذ بضبعه وهزّه، وقال: يا محمَّد اقرأ. قال: وما أقرأ؟ قال: يا محمَّد ﴿اقْرَأْ

(1) ابن حنبل، أحمد: المسند، لا ط، بيروت، دار صادر، لا ت، ج2، ص222.
(2) الشريف الرضي، أبو الحسن محمَّد بن الحسين بن موسى: نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ورسائله وحكمه)، شرح محمَّد عبده، ط1، قم المقدّسة، دار الذخائر؛ مطبعة النهضة، 1412هـ.ق/ 1370هـ.ش، ج1، الخطبة 192 (القاصعة)، ص157.

بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، ثمّ أوحى [إليه] ما أوحى إليه ربّه عزّ وجلّ»[1].

ل. تاريخ النبيّ ﷺ يشهد بتمكُّنه من تغيير الواقع ومواجهة المعاندين والمستكبرين؛ بأقلّ إمكانيّات مادّيّة وبشريّة، على الرغم من قوّتهم وسطوتهم؛ وهذا مؤشّر على تسديده الإلهيّ واتّصاله بالغيب.

2. المحتوى الداخليّ للظاهرة القرآنية يناقض شبهة الوحي النفسيّ:

إنّ للمحتوى الداخليّ للظاهرة القرآنيّة وما تتّصف به من مواصفات، ولسعة النظريّة القرآنيّة وآفاقها المتعدّدة ومجالاتها المتشعّبة، أهمّيّةً كبرى في رفض شبهة الوحي النفسيّ، إذ إنّ هذه المواصفات وهذا الاتّساع والشمول لا يتّفق مع طبيعة المصادر التي تفرضها هذه الشبهة، ويتّضح ذلك عندما نلاحظ الأمور الآتية:

أ. إنَّ الموقف العامّ للقرآن الكريم تجاه الديانتين اليهوديّة والمسيحيّة هو موقف المصدِّق لهما والمهيمن عليهما، فقد صدّق القرآن الكريم الأصل الإلهيّ لهاتين الديانتين وارتباطهما بالمبدأ الأعلى، ولكنّه في الوقت نفسه جاء مهيمنًا ورقيبًا وحاكمًا على ما فيهما، ومبيّنًا لواقع ما ورد عليهما من تحريفاتٍ وبدعٍ وضلالاتٍ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾[2]. فبعد أن ذكرت الآيات السابقة خصائص كلٍّ من التوراة والإنجيل وما فيهما من نورٍ وهدى للناس، وتصديق اللاحق من الرسالات الإلهيّة للسابق منها،

(1) تفسير الإمام العسكري عليه السلام، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، ط1، قم المقدّسة، مطبعة مهر، 1409هـ ق، ح78، ص156-157.
(2) سورة المائدة، الآية 48.

وشهادة السابق منها على اللاحق، بيّن الله تعالى أنّ القرآن الكريم مهيمنٌ وحاكمٌ على الرسالات الإلهيّة السابقة. وهيمنة القرآن هي في بيانه كلّ ما يحتاجه الإنسان في وصوله إلى سعادته وكماله، فالقرآن يصدّق ما ورد في التوراة والإنجيل من التعاليم والمعارف والأحكام، ويهيمن على بعض الأحكام بالنسخ والتكميل والزيادة والإصلاح لما حُرِّف من تعاليمها؛ بما يحقّق صلاح الإنسانيّة في الترقّي إلى الكمال.

وقد جاءت الرقابة القرآنيّة دقيقةً شاملة، فلم تترك مفهومًا أو حكمًا أو حادثةً إلَّا ووضعت المقياس الصحيح له. ولا يمكن أن نتصوّر النبيّ محمّدﷺ وهو يأخذ عن أهل الكتاب ويراهم قد أخذوا عن الوحي الإلهيّ، ومع ذلك يتمكّن من أن يصفهم بالجهل والتحريف والتبديل بمثل هذا اليقين والثبات، ثمّ يوضّح الموقف الصحيح في المسائل الكبرى التي اختلفوا فيها أو خالفوا الواقع الصحيح للديانة، ثمّ تأتي نظريّته بعد ذلك كاملة شاملة ودقيقة ليس فيها تناقض ولا اختلاف!

ب. نجد القرآن -أيضًا- يخالف التوراة والإنجيل في بعض الأحداث التاريخيّة، فيذكرها بدقّةٍ متناهيةٍ ويتمسّك بها بإصرار، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يتجاهل بعضها على الأقلّ، تفاديًا للاصطدام بالتوراة والإنجيل؛ ففي قصّة موسىعليه السلام يشير القرآن إلى أنَّ التي كفلت موسىعليه السلام هي امرأة فرعون: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1]، مع أنَّ سفر الخروج من التوراة يؤكّد أنَّها كانت ابنته. كما أنَّ القرآن يذكر بدقَّة غرق فرعون، ولا يتجاهل حتّى مسألة نجاة بدن فرعون من الغرق مع موته وهلاكه: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾[2].

(1) سورة القصص، الآية 9.
(2) سورة يونس، الآية 92.

في الوقت الذي نجد التوراة تشير إلى غرق فرعون بوجهٍ مبهم، ويتكرَّر الموقف نفسه في قضيَّة العجل، حيث تذكر التوراة أنَّ الذي صنعه هو هارون، وفي قصَّة ولادة مريم للمسيح عليه السلام، وغيرهما من القضايا.

ج. سعة التشريع الإسلاميّ وعمقه وشموله للمجالات المختلفة من الحياة، مع دقّة التفاصيل التي تناولها، والانسجام الكبير بين هذه التفصيلات.

3. موقف النبيّ صلى الله عليه وآله من الظاهرة القرآنية شاهد على رفض شبهة الوحي النفسيّ:

وهو من أفضل الشواهد على بطلان شبهة الوحي النفسيّ، حيث كان النبيّ صلى الله عليه وآله يدرك بوضوحٍ لا لبس فيه ولا شكّ ولا ارتياب خصوص الانفصال التامّ بين ذاته المتلقّية للوحي والذات الإلهية المقدّسة المُلقِية له من أعلى على قلبه صلى الله عليه وآله.

ويمكن الإشارة إلى ثلاث صور لهذا الشعور بالانفصال التامّ، وهي:

أ. الصورة الأولى:

الصورة التي يبدو فيها النبيّ صلى الله عليه وآله من خلال الظاهرة القرآنيّة عبدًا ضعيفًا لله سبحانه، يقف بين يدي مولاه يستمدّ منه العون، ويطلب منه المغفرة، ويمتثل أوامره ونواهيه، والأمثلة القرآنيّة على ذلك كثيرة؛ منها:

- يصوّر القرآن النبيّ صلى الله عليه وآله في صورة الإنسان المطيع الذي لا يملك لنفسه شيئًا، ويخاف ربّه إن عصاه، فيلتزم الحدود التي وضعها له، ويرجو رحمته، وليس من شيءٍ يأتيه إلَّا من ربِّه، فهو يعترف بالعجز المطلق تجاه إرادة الله أو تبديل حرفٍ من القرآن؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ

عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ...﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَمْلِكُ لَنِفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ...﴾[4]،...

- ثمّ يزداد هذا الفرق وضوحًا بين ذات الله المتكلّم مُنزِل الوحي وصفاته، وبين ذات رسوله المخاطَب متلَقّي الوحي وصفاته في الآيات التي يعتب الله فيها على نبيّه، أو يُعلمه فيها بعفوه عنه وغفرانه؛ كقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ...﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّر...﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[8]، ...

- وعي النبيّ ﷺ الكامل للفرق بين ذاته المأمورة وذات الله الآمرة، وبذلك يفرِّق بوضوح بين الوحي الذي ينزل عليه وبين أحاديثه الخاصّة.

(1) سورة يونس، الآيتان 15–16.
(2) سورة الكهف، الآية 110.
(3) سورة الأعراف، الآية 188.
(4) سورة الأنعام، الآية 50.
(5) سورة التوبة، الآية 43.
(6) سورة الفتح، الآية 2.
(7) سورة الإسراء، الآيات 73-75.
(8) سورة الحاقّة، الآيات 44-47.

ب. الصورة الثانية:

يبدو النبيّ ﷺ في القرآن الكريم بمظهر الخائف من ضياع بعض الآيات القرآنيَّة ونسيانها؛ الأمر الذي كان يدعوه إلى أنْ يعجل بقراءة القرآن، قبل أن يُقضَى إليه وحيه، ويأخذ بترديده، ويُجهد نفسه وفكره من أجل أن لا يفوته شيء من ذلك؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿...وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1]، وقوله -تعالى-: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[2].

ج. الصورة الثالثة:

يبدو النبيّ ﷺ من خلال تاريخ نزول القرآن أنّه كان مقتنعًا بأنّ التّنزيل القرآنيّ مصحوب بانمحاء إرادته الشخصيّة، وأنّه منسلخ عن الطبيعة البشريّة حتّى ما بقي له اختيار في ما ينزل إليه أو ينقطع عنه، فقد يتتابع الوحي ويحمى حتى يشعر أنّه يكثر عليه، وقد يفتر عنه، بل وينقطع؛ وهو يشعر أنّه أحوج ما يكون إليه: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[3].

وقد كان الوحي النبويّ المحمّديّ ينزل على نحوين؛ هما:

- **الوحي المباشر:** وهو أصعب أنواع الوحي، وفيه يتّصل النبيّ ﷺ بكلّ وجوده بالله تعالى من دون توسُّط أيّ واسطة. ويحصل ذلك عندما تتهيّأ نفس النبيّ ﷺ لهذا الاتّصال المباشر. وقد ورد في الروايات الشريفة توصيف لثقل هذا الوحي، منها:

• ما روي أنّ الحرث بن هشام سأل النبيّ ﷺ: كيف كان ينزل عليك

(1) سورة طه، الآية 114.
(2) سورة القيامة، الآيات 16-19.
(3) سورة الضحى، الآيات 1-3.

الوحي؟ قالﷺ: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس؛ وهو أشدّ عليّ، فيفصم عنّي؛ وقد وعيت ما قال، وأحيانًا يتمثّل المَلَكُ رجلًا، فيكلّمني؛ فأعي ما يقول»[1].

- ما رواه عبد الله بن عمر: سألت النبيّﷺ: هل تحسّ بالوحي؟ قالﷺ: «أسمع صلاصل، ثمّ أسكت عند ذلك. فما من مرّة يُوحى إليّ إلّا ظننت أنّ نفسي تفيض»[2].
- ما رواه زرارة عن الإمام الصادقعليه السلام، من أنّه سألهعليه السلام عن الغشية التي تصيب النبيّﷺ إذا نزل عليه الوحي؟ فقالعليه السلام: «ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد. ذلك إذا تجلى الله له»[3].
- ما روي أنّهﷺ كان إذا نزل عليه الوحي يُسمَع عند وجهه دويّ؛ كدويّ النحل، وأنّهﷺ كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد؛ فيفصم عنه، وأنّ جبينه لينفصد عرقًا، وأنّه كان إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك، ويربد وجهه، ونكس رأسه، ونكس أصحابه رؤسهم منه. ومنه يقال: برحاء الوحي؛ أي شدّة ثقل الوحي[4].

- **الوحي غير المباشر:** وفيه يتلقّى النبيّﷺ الوحي عبر واسطةٍ تكون صلةَ وصلٍ بينه وبين الله تعالى؛ كما في الوحي النازل عليهﷺ بواسطة المنام والرؤيا: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[5]، وكما في الوحي النازل على رسول اللهﷺ بواسطة جبرائيلعليه السلام: بصورته

(1) ابن شهرآشوب، محمَّد بن عليّ: مناقب آل أبي طالبعليهم السلام، تصحيح وشرح ومقابلة: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، لا ط، النجف الأشرف، المطبعة الحيدريّة، 1376هـ.ق/ 1956م، ج1، ص41.
(2) ابن حنبل، المسند، م.س، ج2، ص222.
(3) الصدوق، محمَّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه: التوحيد، تصحيح وتعليق: هاشم الحسينيّ الطهرانيّ، لا ط، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، لا ت، باب8، ح15، ص115.
(4) انظر: ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالبعليهم السلام، م.س، ج1، ص41.
(5) سورة الفتح، الآية 27.

الحقيقيَّة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[1]، أو متمثِّلًا بصورة رجل؛ فعن **الإمام الصادق**عليه السلام: «**إنَّ جبرائيل كان إذا أتى النبي**صلى الله عليه وآله **لم يدخل حتّى يستأذنه، وإذا دخل عليه قعدَ بين يديه قعدة العبد**»[2].

وبالنتيجة: حين نلتفت إلى هذه الصور الثلاث بصورها المختلفة، ونضيف إليها النقطتين السابقتين، لا يبقى لدينا مجال لأيّ تردّد في شأن حقيقة الظاهرة القرآنيّة، وانفصالها عن الذات المحمّديّة الشريفة، وبطلان الوحي النفسيّ وما إليه من شبهاتٍ قد تُثار على الوحي.

خاتمة:

الوحي صلة وصل بين الله تعالى وخلقه عبر أنبيائهعليهم السلام، كشَف لهم من خلاله عن المعارف الإلهيّة والحقائق الربّانيّة اللازمة لرفع الاختلاف بينهم، وهدايتهم وإيصالهم إلى سعادتهم وكمالهم.

والوحي إدراكٌ خاصٌّ مختلف عن سائر الإدراكات البشريَّة المشتركة بين أفراد البشر كافَّة والمتحصّلة عن طريق الحسّ أو العقل أو الوجدان، يُوجده الله تعالى في أنبيائهعليهم السلام إيجادًا لا يعتريه لبس أو شكّ أو خطأ، ولا يحتاجون فيه إلى إعمال نظر أو توسّل دليل؛ فالنبيّعليه السلام يتلقّى الوحي بكلّ

(1) سورة النجم، الآيات 4-18.

(2) الصدوق، محمَّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه: كمال الدين وتمام النعمة، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفّاري، لا ط، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدّسة، 1405هـ.ق/ 1363هـ.ش، ص85-86.

بوجوده، ولم يكنْ للحواس الظاهريّة أيّ دور في هذا الأمر؛ وإلاّ لأمكن لغيره من الناس سماع ما يسمع، ورؤية ما يرى.

ولم يكن النبيّ محمَّدﷺ بِدعًا من الأنبياءعليهم السلام في هذا الاختصاص النبويّ، ولا أوَّل مَن خاطب الناس باسم الوحي السماويّ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ...﴾[1]. ودفعًا لهذا الاستنكار، قال -تعالى-: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ...﴾[2].

انقطع هذا الاتّصال الوحيانيّ بعد رحيل خاتم النبيّين محمَّدﷺ، مع استمرار الاتّصال الغيبيّ بين الإنسان وعالم الغيب عن طريق التحديث والإلهام؛ والكلام فيهما يحتاج إلى بحثٍ آخر يخرج عن مقصد هذه الدراسة.

وقد بان بما تقدّم في هذه الدراسة بطلان شبهة الوحي النفسيّ وتفسيراتها الاستشراقيّة؛ حيث ذهبوا إلى أنّ ما يراه مدّعو النبوّة من معانٍ وأفكار حاضرة في أذهانهم هي نتيجة نبوغهم وتفكيرهم العميق بمشاكل الإنسان والمجتمع وحملهم هَمَّ نشر الفضيلة والعدالة بين الناس؛ فتنقدح نتيجة ذلك الحلول في أذهانهم، فيظنّنون أنّها تُلقَى عليهم من خارج أنفسهم عبر ما يسمّونه الوحي الإلهيّ السماويّ أو الغيبيّ!

وبذلك حاول المستشرقون تفسير الحالات النفسيّة والعوارض الجسديّة التي كانت تصيب النبيّﷺ أثناء الوحي، أو الخلفيّات والبواعث الفكريّة والنفسيّة والاجتماعيَّة التي دفعته لادّعاء الاتّصال الوحيانيّ؛ بهدف إنكار المصدر الإلهيّ للوحي وادّعاء بشريّته.

غير أنّ ما ذكروه لا يصلح دليلًا على إثبات الوحي النفسيّ أو نفي الوحيّ الإلهيّ؛ فتبقى مجرّد دعاوى لا دليل عليها، بل الدليل على بطلانها من العقل، والنقل، والشواهد التاريخيّة القطعيّة!

(1) سورة يونس، الآية 2.
(2) سورة النساء، الآيات 163-167.